

القضاء على القضاء

كلمة للدكتور الفيلسوف المرحوم شبلي شميل حل فيها على القضاء مبيناً بالبراهين ما ينجم عنه من الاضرار الاجتماعية من حيث الاسس القائم عليها فاحببنا اثباتها ليطالع عليها قراء الحقوق والدكتور شميل ليس من يجمله من قراء العربية فقد كان علماً من الاعلام ومؤلفاته بين ايدينا تدبئنا عن فضل الرجل فليس ادل على مكانته منها .

الحرر

ما خلس الانسان من شباك علم اللاهوت وامتيازات الرؤساء حتى وقع في حبائل آشد وادهى وهي علم الحقوق او اللاهوت الاجتماعي كما صار اليه اليوم والتورة التي يقتضيها تغير هذا النظام المعقد سيكون هو لها شديداً لتأصله في قلب الاجتماع وامتداده الى اعماق تفاسماته . ولكن اليوم الذي سيختلص الاجتماع منه ويرده الى شكله البسيط سيكون نعمة عظيمة ايضاً اذ تصرف القوى الضائعة فيه بذلك الى نهضة السبيل القويم لمرعة ارتقاء الارتقاء الحقيقي .

« لو انصف القاضي استراح الناس »

اليك ايها القاريء العاقل والعاقل المتأمل ولا اطلب منك علماً واسعاً وفلسفةً بديمةً وحكمةً بليغةً بل اطلب منك عقلاً نحت قيوده وفتحت منافذه واقام التفكير مقام الاعتقاد والبحث مقام المقرر يقدر مستنتجات العلم قدرها ولا يخس مسقططات العقل حقها . فاعزني سمعاً قليلاً ولا اكلفك حلاً طويلاً قبل ان نرميني بالاغراب لاستغرابك

عنوان مقالتي وتقول من ذا الذي يريد قلب الموضوع وتغيير المطبوع
لاني على يقين بانك اذ امعنت نظرك وسرت معي شوطاً غير بعيد في
هذا البحث الاجتماعي لم تعد ترضى بالوقوف عند الحد الذي اوقفك
عنده تعاليم وضعها الناس على ما بهم من الجهل والفوايه وادخلوها الى
عقلك بالارهاب والترغيب حتى رسخت فيه وصارت في اعتقاده
قضايا مسلمة لا تقبل التغير وجرت على السنة الناس مجرى الامثال
واعتبروها من الحكم الباهرة وهي لو تفحصتها وجدتها اوهى من نسيج
العنكبوت يمزقها التحييص تمزيقاً ولا تثبت على جر الانتقاد بل لو
دققت البحث فيها جيداً لاستغربت جداً كيف يستطيع العقل ان
يضل هذا الضلال ويخيد عن الجادة المثلى والامثلة التي امامه من
الطبيعة كثيرة ترشده الى خلاف ذلك وتعلمه طريق الصواب .
والطبيعة هي الكتاب الوحيد المنزل الذي ينبغي ان يعول عليه وان
نرجع في احكامنا اليه .

جرى على السنة الناس مجرى الامثال قولهم « لو انصف الناس
استراح القاضي » وربما لم يخطر على بال احد انه سيقوم اناس يعتبرون
مثل هذا القول خطأ ويرون الصواب في عكسه ويؤيدون قولهم
بادلة تنطبق على العلم ويقبلها العقل ولا يجرحها الا كثرة عدد الجمهور
المستغرق في سبات الاقتناع والراقد على اديم التواتر .

والعلماء الحكماء لا يهمهم ذلك ولو نالهم منه صدمة قوية

وعزعت أركان مصالحهم. ولكنها لا تستطيع شيئاً على أفكارهم والمستقبل لهم أي لمبادئهم فهو لاء الناس يقولون «لو انصف القاضي استراح الناس» ويريدون بالقاضي هنا القضاء عموماً لا الأحكام الخصوصية التي يصدرها القضاة أحياناً كثيرة وتكون عرضة للانتقاد لحكم المحاكم الأهلية في قضية الاختلاس الذي وقع في إحدى مصالح الحكومة إذ أفلتت القوى عملاً بقوله :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتي مريض المستأسد الضاري
وخففت العقاب على المرتكب الاصيل وشددته على الشريك
فمثل هذا الحكم لا يوجد له لفظة تقوم لوصفه في قاموس اللغة الفصحى ولا يوجد له ذلك إلا في اللغة العامية واللغة العامية ولا يخفى تعبر أحياناً كثيرة عن معان لا تصل إليها اللغة الفصحى فالعامية تطلق على مثل هذا الحكم اسم - حكم كروي - وربما لا يعدم العلماء وصفاً لمثل هذا الحكم ينطبق على علم الأعصار الحديثة فاطلقوا عليه اسم «حكم هستيري» فمثل هؤلاء الناس يعتبرون أن عدم الانصاف كائن في القضاء نفسه وهو سبب متاعب الإنسان في العمران.

فالقضاء هو إحدى الشرعيتين العظيمتين اللتين تتوليان قيادة الهيئة الاجتماعية وهما الشرعية الدينية والشرعية السياسية فبحسب حال هاتين الشرعيتين تكون حال الإنسان في العمران.

وقد انقضى الزمان الذي كان الجهل سائداً فيه على العقل والذي كان الانسان يقول فيه:

اذا قلت المحال رفعت صوتي * وان قلت الصحيح اطلت همسي
فليس للانسان شرائع منزلة الا ما انزل جهله عليه من الخرافات
والاوهام فشرائع الانسان من صنع الانسان وهي تابعة لحاله من
الانحطاط والارتقاء حقيقة توجب الفخار لقائلها بمقدار ما تجلب العار
على مقاومها.

فالعقاب الذي هو اساس الشرائع عموماً والقضاء خصوصاً اثر
من اثر الحمجية وبقية من بقايا توحش الانسان الاول وما دام هذا
المبدأ الفاسد اساس القضاء فصلاح الهيئة الاجتماعية به امر مستحيل
بل اذ دققنا النظر جيداً وجدنا انه سبب الشر « الكثير في العمران »
كالقتل والسرقة وخصوصاً الكذب الذي هو اصل كل الشرور وان لم
يكن سببها الحقيقي فهو السبب المساعد على انماها قال هو باخ « انا لا
نرى هذا القدر من الجنايات على الارض الا لتضافر كل شيء على جعل
البشر / اشراراً جنيين فان دياناتهم وحكوماتهم وشرائعهم وتربيتهم
والامثلة التي يرونها نصب اعينهم تدفعهم الى الشر فما عسى ينفع تعليم
الفضيلة التي يذهب اصحابها غنيمة باردة في هيئات اجتماعية ترفع شأن
الجاني وجنانيته وتجل قدر المسيء واساءته ولا تقاصر اقبح الذنوب الا
اذا كان مرتكبوها ضعافاً فان الهيئة الاجتماعية تقاص الصعاليك باذنوب

ترفع شأن أصحابها اذا كانوا كباراً وكثيراً ما تقضى بلموت على اناس لم يرتكبوا القبيح الا لفساد احكامهم بالاعتقادات الفاسدة التي تكون الحكومة قائمة بتقرير شأنها.

فان هذه الشرائع التي لم ينظر فيها الا الى العقاب للانتقام وهذه المعاملات التي لم يقصد منها الا القسوة للارهاب هي التي ولدت اكثر الصفات الرديئة في البشر ولا نرجع الى العصور الحالية وننبش قبور الذين عذبتهن الغايات السياسية والمصالح الدينية ليس من الافراد فقط بل من الجماهير والامم لنثبت صحة هذا القول بل ننظر الى عصرنا الحالي فان الطمع الشديد المستحوذ على اهله والجنوح فيه الى استعمال الحيل والخداع والكذب دليل على انحطاط في تقرير الحقيقة والصدق وارتقاء مخيف في نمو الكذب وعلى من الذنب ليس على الهيئة الاجتماعية نفسها ليس الاطناب في تعظيم هذه الرذائل والارشاد اليها جارياً على الالسنه مجرى الحكم كما في قول الشاعر :

ان لم يكن عندك حظ * فليكن عندك حيلة

وما هي الحيلة يا ترى اليست الخداع وما هو الخداع ليس الكذب وبلسان من عبر الشاعر بقوله :

والصدق ان القالك تحت العطب * لا خير فيه فاعتصم بالكذب

أليس بلسان الهيئة الاجتماعية نفسها حتى صار الكذب شيئاً

لازماً في الحياة الخصوصية كما في الحياة الاجتماعية في صناعة الحب كما في صناعة الحكم على الجماهير السنانحن الذين علمنا الانسان ان يكذب لانه رآنا نعاقبه على الصدق وان يسرق لاننا حجبنا عنه ما يحتاج اليه فالكذب عادة الذنب في انتشارها على الهيئة الاجتماعية وهو الذي يجرنا الى ارتكاب الجنايه وهذه الهيئة التي تعلمنا ذلك ونجرنا الى ذلك هي التي تطلب معاقبتنا على ما اكسبتنا اياه بالعادة ومكنته فينا بالوراثة .

وانواع العقاب الكبرى ثلاثة : القتل ، والحبس ، والتعذيب فهذه العوامل البربرية الثلاثة يسطو القضاء على الهيئة الاجتماعية التي وكلت اليه صيانة مصالحها ومما يدلك على ان هذه العوامل الثلاثة من آثار التوحش زوال بعضها وتلطيف البعض الآخر فن التعذيب الذي كان سلاح القضاء في عصور الخشونة كاد يزول من اكثر الممالك المتقدمة وقل القتل واصطلحت حالة السجون نوعاً فبعد ان كان الجاني يلقى في اعماق السجون المظلمة محجوباً عن الهواء والنور اللذين من بهما الخالق على الاختيار والاشرار صار يسمح له بان يرى النور ويستنشق الهواء وهذا الاصلاح الطفيف المعيب الذي يفتخر به القضاء اليوم هو عار على القضاء ووصمة تخجل منها الانسانيه ولا يستطيع ان يفاخر به اقل الاصلاحات التي حصلت في اقل الفروع المعاشية التي تهتم الهيئة الاجتماعية وما دام القضاء لا يتخذ مبدءاً له

دفع الشر عن الهيئة الاجتماعية وهو صيانة مصالحها وتمهيد طرق اصلاحها.

وبما يكون دفع هذا الشر وتوفير هذا النفع ابالاعدام الذي هو نقص في الشرائع كما ان البتر نقص في الطب ولا يجوز ان الا اذا تعذر الاصلاح ام بالتعذيب وبالاشغال الشاقة وهي معاملة خسنة تمكن الانسان من الاخلاق الوحشية وتبعده عن الانسانية ام بالسجون التي هي قبور في الحياة لا يكتسب الانسان فيها الا فساد صحته من سوء الغذاء وقلة الهواء والنور والظافة وفساد اخلاقه لما بها من سوء المعاملة وعدم الاعتناء بالتربية الحسية بأكل الانسان ويشرب وينام وقد يجتر كالحيوان ويقل عنه في انه لا يعمل عملاً مفيداً او يكتسب عملاً مفيداً سقوفها تظمر البق وارضها تنبت القمل وجدرانها تشف عن الرذائل أفى مثل هذه الاماكن المدة في الاصل للانتقام نأمل ان تصلح الجاني وان توفر نفعه للهيئة الاجتماعية كلاً ثم كلا فالهيئة الاجتماعية نازلة واي ظلم اذا كنا نظن انها تطلب منا ان نفتص لها من جناتها انتقاماً منهم حاشا ثم حاشا ان تطلب ذلك من نفسها ضد نفسها وهي في صحة عقلها وبالحقيقة من هم الجناة أليسوا من الافراد الذين يؤلمون الهيئة الاجتماعية أنفسهم. فلقد انقضت تلك العصور الخسنة عصور الجهل التي كانوا يغفلون فيها مصالح الافراد ولا يدركون قيمة لهم كان ليس لهم حق في هذه الحياة الاستقلالية وليس لهم شأن

في الحياة الاجتماعية ولا يستحقون رحمة بهم ولا عطفاً عليهم من الإنسانية ولكن نور العلم الوهاج الذي يزداد كل يوم نوراً والذي هو نبراسنا الساطع في ظلمات هذا الوجود ودليلنا الذي لا يضل في مجاهل هذه الحياة آخذ في تمزيق غياهب الضلالات التي اورثناها الجمل وكل يوم يهتدي به العقل الى تعظيم شأن الافراد في الاجتماع الانساني كما هو شأنها في الاجتماع الطبيعي لتأييد دعائم الاقتصاد السياسي الذي هو نوع من الاقتصاد الطبيعي لان الاقرار بم اساس الذي تبنى عليه الجموع وتنشأ منه الجماهير وتتألف منه الهيئة الاجتماعية فالعبث بحقوق الافراد عبث بحقوق الهيئة الاجتماعية نفسها.

ومن ينكر ان السجون على حالتها الحاضرة هي منشأ الجرائم والذائل وكل الشرور التي تتأصل في الهيئة الاجتماعية فلا شك انه من القحة على جانب عظيم. وانه لعار على القضاء ان يكون الاخير في الاستفادة من مكتشفات العلم والصناعة وسائر معدات التمدن ولثلا ارمى بالفسادة والتخامل اقول لنقابل بين المستشفيات في الماضي ومعاملة المرضى فيها والمستشفيات اليوم ومعاملتهم فيها وبين السجون في الماضي والسجون اليوم ومعاملة المسجونين فيها. فقد جاء في الكورسبون دانس مديكال بتاريخ ٣١ مايو من هذه السنة عن المستشفى المعروف بلوتيل ديوبيا ترير الذي هو اقدم مستشفيات اوروبا «فانه انشئ في سنة ٦٥١» نقلا عن تقرير تنون في سنة ١٧٨٦ ما نصه.

وكانوا يطبخون في قاعات المرضى الطعام المعد لهم وكانوا يضعون عدة اشخاص في سرير واحد حتى كان الداخل اليها يكاد يخنق .

بل ننظر الى معاملة المجانين في المارستانات في الماضي كيف كانوا يضربون ويعذبون ويهانون ثم ننظر الى ما صارت اليه المستشفيات والمارستانات اليوم من الاتقان البالغ الغاية القصوى من توفير اسباب الراحة والاعتناء بالصحة حتى صارت تحاكي قصور الملوك لننظر الى ذلك ونقابله بحالة السجون والمسجونين في كل المعمور وهل توجد نسبة بين الاصلاح المعيب الذي حصل في السجون والاصلاح البالغ الغاية في المستشفيات والذنب في ذلك على من . أليس على القضاء نفسه الذي لم يعرف ان يستفيد من اتعاب الانسار كما استفاد سواه بل الذي لا يزال متمسكا بالقديم المنتقل اليه من عصور غلب جهلها على علمها معتبرا أنه ما وجد الا للارهاب والعقاب والانتقام وهو بذلك يزيد مصائب الهيئة الاجتماعية خلافا لما يطلب منه وهو اصلاحها وتخفيف ويلاتها كأن اهل السجون لا يستحقون هذه النانية . فكيف استحق مرضى الاجسام اعتناء رجال الفضل والحكومات بهم ولا يستحق مرضى الاجتماع منهم ذلك لان اهل السجون ليسوا بالحاضر الا مرضى في الهيئة الاجتماعية سواء كان بالمعنى الحقيقي او بالمعنى المجازي .

بل اهل السجون هم مرضى بالمعنى الحقيقي مرضى في عقولهم

مرضى في شهواتهم مرضى في ارادتهم مرضى في قوتهم المتصرفه
 فمعلوم لكل ذي عقل ولا يحتاج الى اطلاق العلماء والاستشهاد باقوالهم
 لاثبات ذلك ان اصحاب الجرائم قسمان قسم يرتكب الجرم لقصد
 الكسب او شهوة اخرى وقسم يرتكب الجرم مندفعاً اليه باسباب
 اقوى منه من دون ادنى روية او تبصر في العواقب فالاول يسرق
 ويقتل ويرتكب الفحشاء ولا يستطيع القضاء غالباً ان يمد اليه يداً لانه
 عاقل يتخذ الاحتياطات اللازمة لستر جريمته فهذا المشول عن عمله
 والذي يجب على القضاء ان يعاقبه فليبحث عنه لا في السجون وعلى
 مصاطب المحاكم بل في القصور على فاخر الرياش ووثير المهاد فالجرمون
 ليسوا كلهم في السجون كما ان المجانين ليسوا كلهم في المارستانات
 وليس منهم في السجون الا المرضى بالمعنى الحقيقي فموضاً عن ان نعاملهم
 كما يعامل اخوانهم في المستشفيات نراها شاهدين فوق رؤوسهم سيف
 ديموقلس اي سيف النعمة للاقتصاص منهم وهم اولى برحمة الطبيب .

اقول اولى برحمة الطبيب ولا ابالغ ولو عارضني معارض لهب
 لنصري من ارباب العلم والذكاء الوف كل واحد بمقام آلاف من ابي
 الطيب ابو قراط المتوسد في قبره من عصور طويلة الى شركو وبال
 ولمبروزو من مشاهير علماء هذا العصر واشياعهم الذين يعدون اليوم
 بالآلاف وخصوصاً هذا الاخير الذي يرأس المدرسة الحديثة التي تبحث
 عن طبائع المجرمين فلنسمع ماذا يعلمنا شركو عن متشيطني الامس

ومصروعى اليوم الذين كثيراً ما يصيرون مجرمين . فقد كان الناس فى العصور الخالية يعتبرون الهستيريات « اى المصابات بالهستيريا وهو مرض عصبي واللو اتي يضعون لمن الزار فى هذه البلاد » انهن شياطين فكانوا يحاولون اخراج هذه الشياطين بكل ما لهم من الوسائل الدينية والسرية فان لم تنجح عمدوا الى تذيب الاجساد التي كانوا يزعمون ان الشياطين حالة فيها بكل انواع العذاب كالجلد والتقليب على شوك الحديد والحريق بالنار بعد ان كانوا يقيدها بسلاسل الحديد ويلقونها فى اعماق السجون المظلمة هذا ما كان يفعله رجال الدين ورجال السياسة بنثل هؤلاء المساكين قبل شركو ومن تقدمه من افضل المصلحين وما كان عدد المتشيطنين ليقبل بهذه المعاملة الوحشية واما اليوم فمن فضل شركو الذي افاد الانسانية من هذا القبيل فى سنين قليلة اكثر من كل الشرائع قبله صاروا يعتبرونهم من طائفة المرضى الذين يجب الرفق بهم ومعالجتهم فى المستشفيات البالغة الغاية القصوى من الاتقان وما زاد عدد المتشيطنين بهذه المعاملة الحسنه بل قل جداً مما يدل على ان الشياطين انفسهم يدعون للحجاسة اكثر منهم للخاشنة .

« وبال » يعلمنا ان المجانين ليسوا كلهم فى المارستانات فان افعال العقل المختلفة قد تحتل من جهة مع بقاء الجهات الاخرى سليمة مما يمكنهم ان يعيشوا بين الناس بحالة لا يختلف ظواهرها عن حالة العقل السليم فاذا طرأ عارض هيج الجانب الضعيف ظهر الاختلال فى العقل وربما جر ذلك صاحبه الى ارتكاب الجناية وسيق الى المحاكم . قال

« مارسلية » « يوجد بين الذين تحكم عليهم المحاكم عدد كبير من المحتلي
الشعور وإذا دققنا النظر نجد أن أكثر الجرائم صادرة عن أناس غير
مسئولين فالمعتوهون وضعفاء العقول والذين بينهم حؤول ورثي
واصحاب الصرع واصحاب الهذيان المجرمين قد يصيرون مجرمين إذا
عرضت لهم الفرص بسبب ما بينهم من الخلل في القوى العقلية وهذه
الفرص كثيرا ما تعرض لهم فيقتنمونها »

ولا ريب بأنه سيكون للمبروزو في المستقبل في اصلاح المجرمين
نفس الفضل الذي كان لشركو في معاملة اصحاب الامراض المستيرية
ولا نبعد كثيرا عن الزمان الذي سيدخل فيه القضاة ان يتموا دروسهم
الشرعية بالاقامة ولو سنة في مستشفيات الامراض العصبية ليروا
باعينهم ويحسوا باصابعهم اوجاع الانسان ليعرفوا كيف يجب ان
يحكموا فيها .

والحاصل مما تقدم ان القضاء ما دام اساسه العقاب وما دامت
السجون لا تتحول الى مدارس تلم فيها الصناعات وتهذب فيها الاخلاق
وتحول فيها قوى المجرمين الى منافع والى مستشفيات يعالج فيها مرضى
الاجتماع كما يعالج فيها مرضى الاجسام مدارس مستشفيات بالغة الغاية
القصوى من الاتقان فهو عار على الانسانية وعقبة كبرى في سبيل
اصلاح الهيئة الاجتماعية .